مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد02 2022/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

قراءة أنثروبولوجية لأشكال الحياة الدينية في رحلة ابن جبير

An anthropological reading of religious life forms in Ibn Jubayr's trip

د.عائشة راشدي[1]*

[1]جامعة الشاذلي بن جديد –الطارف–

docbasta033@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/02/28 تاريخ القبول: 2021/05/28

ملخص:

تعد رحلة ابن جبير من الرحلات الرائدة في تاريخ البحث الأنثروبولوجي العربي، لما توفرت عليه من آليات منهجية شملت الوصف، والتحليل لبنية حياة المجتمعات التي زارها أثناء رحلته لأداء فريضة الحج. وقد اختارت هذه الدراسة محاورة النسق الديني فيها وقراءته بمنظور أنثروبولوجي يعاين الحياة الدينية ومظاهر القداسة في مختلف جوانبها، مكانا وزمانا وأفعالا وطقوسا ممارسة، لنكشف من خلال تحليلها عن أصولها وامتدادها عبر التاريخ الإنساني. فماهي تمظهرات الدين وأشكال المقدس في تلك الرحلة؟ وما هي أسس المقدس وآلياته وكذا أبعاده الأنثروبولوجية؟

الكلمات الدالة: الدين، المقدس، الأنثروبولوجيا، الرحلة، الطقوس.

Abstract:

Ibn Jubayr's trip is considered as one of the pioneering journeys in the history of Arabic anthropological research owing to the methodological mechanisms available in it that included description and analysis of the life structure of the societies he visited during his journey to perform the pilgrimage (Hajj). This study aims at discussing the religious pattern in Ibn Jubayr's trip and reading it from an anthropological perspective by examining religious life and the manifestations of holiness in its different aspects of place, time, deeds and ritual practices to explore, through its analysis, its origins and extensions throughout human history.

For this sake, the following questions are raised: What were the manifestations of religion and forms of the holiness in this trip? And what are the foundations of the latter and its mechanisms, as well as its anthropological dimensions?

Keywords: Religion; sacred; Anthropology; trip ; rituals.

* **المؤلف المرسل:** عائشة راشدي، **الإيميل:** docbasta033@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

مقدمة:

يشكل الدين مرجعية أساسية في تكوين بنية المجتمعات على مختلف الأصعدة السياسية، الاقتصادية الاجتماعية والثقافية، وبغض النظر عن تعدد مفاهيم الدين واختلافها فإننا نجد حياة كل المجتمعات قائمة على منظومة قيم دينية، تحتكم إليها في توجيه سلوك أفرادها، من ذلك الدور التوجيهي للدين الإسلامي الذي يعد شريعة إلهية، جاءت لإعادة بناء المجتمعات على أسس ودعائم أخلاقية تشكل المرجعية الأولى لمختلف نواحي الحياة. فقد أحدث الإسلام قفزة نوعية وتغييرا جذريا في بنية المجتمع العربي، إذ انتقل العرب معه من ظلام الجاهلية، وما سادها من مظاهر متخلفة (يبوح بها الصراع القبلي وتسلط القوي على الضعيف، وأكل الميتة وقطع الأرحام وغيرها من المظاهر الفاسدة التي كان خلفها الإيمان الراسخ بتعدد الآلهة) إلى نور الحضارة الإسلامية التي أرست قانون وحدة الإله، وجمعت العرب تحت راية حاكم واحد، فانتظم المجتمع العربي وامتزجت بتعاليم الإسلام القيم الروحية مع القيم المادية لدى العرب وانفتحوا على الحضارة بمفهومها الحقيقي.

يرتبط الدين ارتباطا وثيقا بالمقدس فالدين كما يقول إميل دوركايم:" نظام موحد من المعتقدات والممارسات المرتبطة بالأشياء المقدسة" (Durkiem, 1995, p. 44) ويعد المقدس بنية قائمة بذاتها تتجاوز كل ماهو دنيوي ومألوف ويتحقق معه التواصل الفعال مع الله، إذ" يتجلى القدسي دائما كحقيقة من صعيد آخر غير صعيد الحقائق الطبيعية، ويعلم الإنسان بالقدسي لأنه يظهر نفسه شيئا مختلفا كل الاختلاف عن الدنيوي. ويمكننا القول إن تاريخ الأديان من أكثرها بدائية إلى أكثرها ارتقاء عبارة عن تراكم من تجليات الحقائق القدسية، ليس ثمة انقطاعا لاستمرار الظهورات الإلهية..." (إلياد، 1987، الصفحات 12-13)

ينكشف المقدس بذلك ويتمظهر في كل شيء كالأحداث والزمان والمكان والشخصيات، وتسعى هذه الدراسة إلى قراءة الدين والمقدس في رحلة ابن جبير، وذلك بمنظور أنثربولوجي نحاول من خلاله الإجابة عن أسئلة جوهرية تتمثل فيمايلي: ماهي تمظهرات الدين وأشكال المقدس في الرحلة؟ وماهي أسس ذلك الأخير وآلياته وكذا أبعاده الأنثربولوجية؟

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

تعتبر رحلة ابن جبير من الرحلات العربية الرائدة في تاريخ البحث الأنثربولوجي، فهي إلى جانب كونها خطابا أدبيا ترتفع فيه لغة السرد وبراعة التصوير الفني، فإنها حملت كذلك بذور البحث الأنثربولوجي، لما توفرت عليه من آليات منهجية يصب معظمها في خانة الأنثربولوجيا عامة والأثنوغرافيا خاصة. إذ عني صاحبها بالبحث في بنية العديد من المجتمعات التي زارها، وأولى عناية فائقة بالنسق الديني الإسلامي، حيث رصد مختلف العبادات كالصلاة والزكاة والعمرة والحج، وما رافق ذلك من طقوس عديدة تحمل الأفراد إلى عالم القداسة، وهو العالم الذي تترجمه الأحداث ويعبر عنه الزمان والمكان على نحو ما سنبينه فيمايلي.

أولا: المكان المقدس:

يعد المكان بنية مركزية تشتغل داخلها الأحداث ويتموقع فيها الأفراد. والمكان المقدس مكان خاص علوي يتجاوز المكان الدنيوي المدنس، فالمكان المقدس بمعناه الديني والنقدي كما يرى إلياد:"هو المجال أو المحيط الذي ينتمي إلى المناطق التي لا تدركها التجارب الحسية كالسماوات مثلا أو العالم السفلي أو المعابد" (إلياد، 1987، صفحة 39)، وقد تعددت الأماكن المقدسة في رحلة ابن جبير نذكر منها:

1.مكة المكرمة:

لهذا المكان قداسة خاصة فهو بيت الله الحرام، وموطن العمرة والحج دون سواه من الأمكنة، وقد استفاض ابن جبير في وصف هذا المكان والكشف عن مظاهر قداسته قائلا:" مكة شرفها الله كلها مشهد كريم كفاها شرفا ما خصها الله به من مثابة بيته العظيم، وما سبق لها من دعوة الخليل، وأنها حرم الله وأمنه، وكفاها أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم الذي آثره الله بالتشريف والتكريم، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم، فهي مبدأ نزول الوحي والتنزيل وأول مهبط الروح الأمين جبريل، وكانت مثابة أنبياء الله ورسله الأكرمين ...فيالها من تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام، ومولد خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم" (جبير، 1988، الصفحات 84-85)

يؤسس هذا المكان لعالم مقدس خالص يعكسه تموقع بيت الله الحرام فيه، وهو نسخة من البيت المعمور في السموات العلى، وهو أيضا وجهة المتبتلين والعباد والنساك وحتى الملائكة الكرام ، فالكل يطوف حوله تعظيما لله، وتقديسا لوحدانيته وربوبيته. ومكة هي المحل الطاهر والحرم الآمن الذي يحظر فيه كل عمل مدنس، وهي الدلالات التي يحملها اسمها الذي اختصت به، فقد سميت مكة لأنها " لا تقر ظلما ولا بغيا

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ولا يبغي فيها أحد إلا مكته وأخرجته (...) وكانت تسمى بالنياسة لأنها تنس من ألحد فيها أي تطرده، وبالباسة لأنها تبس من ألحد فيها وتهلكه. وهي بلد لقاح لا تؤدي إتاوة ولا تدين للملوك وهي لذلك سميت ببيت الله الحرام، وبالبيت العتيق لأنه لم يزل حرا لم يملكه أحد" (الجارم، دت، الصفحات 18-19)، وقيل إنها "كانت تسمى ببكة لأنها تبك أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا" (هشام، 1995، صفحة 160)

سميت مكة إلى جانب ما سبق بأم القرى وهي تسمية يعكسها موقعها الجغرافي كونها تتموقع في مركز العالم، وهي سمة تتقاطع مع قدسيتها وتتفاعل مع ذلك الحنين الدائم إليها، حيث يشكل اللجوء إليها ميلا غريزيا نحو العالم المقدس، وهي من ثمة تعكس كما يقول مرسيا إلياد:" إرادة الإنسان المتدين لأن يقيم في قلب الواقع وفي مركز العالم حيث بدأ الكون وجوده(...) وهناك حيث توجد إمكانية التواصل مع الإله" (إلياد، 1987، صفحة 52)

يبئر ابن جبير قدسية المكان حينما ربطه بأول طقوس العبور وهو الميلاد الذي يشكل في مكة المكرمة حدثا مقدسا، لأنه ميلاد خير الأنام رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ شكل ميلاده مرحلة عبور حقيقية للمجتمع العربي الذي انتقل معه من ظلام الجاهلية إلى نور الحضارة الإسلامية. فاتسعت قدسية مكة بذلك الميلاد، وازدادت مع نزول الوحي على الرسول الكريم، وتلقيه لكلام الله المقدس على يد جبريل عليه السلام، وكلها أحداث ساهمت في اكتمال قداسة المكان، وجعلته مكانا مباركا وصار اعتقاد الناس في بركته أمرا قارا واعتقادا راسخا، ويستوقفنا ابن جبير عند مظهر من مظاهر ذلك الاعتقاد عند قبائل السرو اليمنيين فيقول ـ"من العجب في أمر هؤلاء المائرين أنهم لا يبيعون من جميع ما ذكرناه بدينار ولا بدرهم إنما يبيعونه بالخرق والعباءات والشَّمَل، فأهل مكة يعدون لهم من ذلك مع الأقنعة والملاحف المتان، وما أشبه ذلك مما يلبسه الأعراب ويبايعونهم به ويشارونهم. ويذكر أنهم متى أقاموا عن هذه الميرة ببلادهم تجدب ويقع الموتان في مواشيهم وأنعامهم، وبوصولهم بها تخصب بلادهم وتقع البركة في أموالهم. فمتى قرب الوقت ووقعت منهم بعض غفلة في التأهب للخروج اجتمع نساؤهم فأخرجنهم، وكل هذا من لطف الله تعالى لحرمة البلد الأمين" (جبير، 1988، الصفحات 103-104)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

2- **الجبل والغار:**

الجبل رمز مشحون بالقداسة فقد عرفت الكثير من الجبال بالقداسة كجبل طور الذي أقسم به الله عزوجل، وجبل أحد وهو من جبال الجنة، وجبل عرفات وهو موضع لقاء أب البشرية آدم عليه السلام مع أمنا حواء، وهو أيضا موضع لقاء وفود الرحمن أيام الحج، ويعد الوقوف عليه شعيرة لازمة من شعائر الحج فلا يتم إلا به. ويوحي الجبل بصورة عامة في بعده الرمزي بالمركزية" فهو واسطة بين العالمين العلوي والسفلي، وأن عليه نزل آدم عليه السلام وإليه كان يصعد العرب للاستسقاء وإضرام نار المزدلفة" (عجينة، 1994، صفحة 528)

يعد جبل ثور من الجبال المقدسة التي استفاض الرحالة ابن جبير في وصف مشهده العظيم وآثاره الكريمة، وما كان فيه من أحداث جليلة يقول :" قرأت في كتاب أخبار مكة لأبي الوليد الأزرقي أن الجبل نادى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد أقبل إلي يا محمد فقد آويت قبلك نبيا" (جبير، 1988، صفحة 86). ولم يقتصر الأمر على أنسنة الجبل بمخاطبته للرسول صلى الله عليه وسلم بل تمتد قداسته إلى تلك المغارة الواقعة فيه التي احتضنت رسول الله وصاحبه وحمتهما من كيد المشركين، وما كان فيها من أحداث عجيبة ومعجزات إلهية حيث إنه :" صلى الله عليه وسلم دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبر وطوله ذراع، فلما اطمأنا فيه أمر الله العنكبوت فاتخذت عليه بيتا، والحمام فصنعت عليه عشا وفرخت فيه، فانتهى المشركون إليه بدليل قصاص للأثر مستاف أخلاق الطريق فوقف لهم على الغار وقال: هاهنا انقطع الأثر فإما صعد بصاحبكم من ههنا إلى السماء أو غيض به في الأرض. ورأوا العنكبوت ناسجة على فم الغار، والحمام مفرخة فيه فقالوا ما دخل هنا أحد فأخذوا في الانصراف، فقال الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله لو ولجوا علينا من فم الغار ما كنا نصنع فقال صلى الله عليه وسلم: كنا نخرج من هناك، وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر من الغار ولم يكن فيه شق، فانفتح للحين فيه باب بقدرة الله عزوجل وهو سبحانه قدير على ما يشاء" (جبير، 1988، الصفحات 86-87)

يشكل الغار رمزا من رموز الاحتواء وفضاء خصبا لاستعادة التوازن النفسي، فكان لذلك ملجأه صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه الوحي، واكتملت فيه شخصيته المقدسة وخرج منه نبيا مرسلا، ثم كان الحضن الحامي له من بطش المشركين، فتقدس الغار بحلول جسده الطاهر فيه، وصار من الأماكن المباركة حتى بعد

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وفاته صلى الله عليه وسلم، فما من مسلم إلا وأخذه الشوق إلى رؤية ذلك الغار والتبرك به يقول ابن جبير:" وأكثر الناس ينتابون هذا الغار المبارك ويتجنبون دخوله من الباب الذي أحدث الله عزوجل فيه، ويرومون دخوله من الشق الذي دخل النبي صلى الله عليه وسلم منه تبركا به" (جبير، 1988، صفحة 87)

إن الحنين إلى تلك الأماكن المقدسة بنية متأصلة في الإنسان الديني المسلم على وجه التحديد، ويعبر ذلك الحنين كما يقول إلياد:" عن الرغبة في العيش في كوزموس طاهر ومقدس كما كان في البداية عندما خرج من بين يدي الخالق" (إلياد، 1987، صفحة 53)، والقارئ للتاريخ العربي يتبين ذلك الحنين في فترات اضطراب الواقع العربي، حيث صار الفرار إلى تلك الأماكن المقدسة ضرورة حتمية يقول محمد عابد الجابري:" إن الحرب الأهلية الطويلة المأساوية التي عانى منها المجتمع العربي الإسلامي منذ الثورة على عثمان، حرب الجمل، حرب صفين وحروب الخوارج فحروب الأبناء أبناء الصحابة بعد وفاة معاوية، وما رافق ذلك من أعمال هزت الضمير الديني والخلقي هزا، كضرب الكعبة وقتل الحسين، ومن آراء ومعتقدات وشعارات بعيدة كل البعد عن روح الدعوة المحمدية وإسلام السلف من الصحابة إلخ، كل ذلك أوقع الضمير الديني عند خاصة الناس في أزمة عميقة، عبرت عن نفسها في مواقف الحياد واعتزال الفتنة والهروب إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة والانقطاع إلى الزهد والعبادة " (الجابري، 2001، صفحة 437). وقد استفاض ابن جبير في الحديث عن الكثير من الأماكن المقدسة والآثار الشريفة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وما لها من تأثير على نفوس المتعبدين والنساك. وتزداد تلك الأماكن قداسة كلما وقفنا عند مختلف العبادات والطقوس الممارسة فيها أثناء المواسم والأعياد المختلفة على نحو ما سنأتي على ذكره في تيمة الزمن المقدس.

ثانيا/ الزمن المقدس وطقوس الأداء:

الزمن المقدس هو الزمن الأول زمن الحياة الخالدة المشبعة بالطهر والقداسة، وهو زمن ديني بأتم معنى الكلمة، إذ يتم فيه التواصل مع الله وإعادة تحيين وتجديد العبودية له سبحانه وتعالى. وتساهم طقوس عديدة في ذلك التحيين وتفعيل تيمة التواصل وتأجيج لحظة الدخول في الزمن المقدس.

يتحدد مفهوم الطقوس بأنه:" أفعال متكررة وفية لقواعد تتواضع عليها المجموعة، وتنخرط في أدائها اللغة والحركة والهيئة، يعبر بها الإنسان عن بعض أحواله ومعتقداته. لذلك تكون الطقوس على صلة بالماورائي،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ففيها يتجلى الدين، وبها يعبر عن الإيمان بالقوى المقدسة وبقوة الكائنات الفاعلة وتتميز الطقوس بالتكرار الذي يسمها بالثبات، وبالنجاعة إذ يقصد من الفعل النجع" (الدبابي، 2010، صفحة 280)

وقد فصل إميل دوركايم الحديث عن الطقوس الدينية وبين أنواعها والهدف المنشود من ورائها حيث "تهدف طقوس الشعيرة الإيجابية إلى عقد الصلة بين الإنسان الديني والشيء المقدس حتى يرجع إليه هذا المقدس بالنفع المنتظر، أما طقوس الشعيرة السلبية فغايتها الفصل بين عالمي المقدس والدنيوي ومنع تداخلهما، فتكون الأفعال الطقسية السلبية تجنبا للمحظورات، وامتناعا عن المحرمات كعدم لمس الشيء المحظور أو غض النظر عنه أو الامتناع عن أكله وصيده في المكان الحرام أو عدم الجهر باسمه، أو القعود عن العمل في العيد وتعطيل الحياة اليومية زمن الحفل. وميز دوركايم كذلك بين الطقوس التكفيرية التي تحرر الإنسان من نجاسة معينة أو تطردها، والطقوس الدعائية وهي ممارسات تحمي من الأرواح الشريرة وتقي الإنسان" (الدبابي، 2010، الصفحات 283-284)

يبئر ابن جبير تيمة الزمن المقدس ويكشف عن تجلياته في مواضع كثيرة منها شهر رجب وليلة النصف من شعبان وليلة السابع والعشرين وغير ذلك. فأما شهر رجب كما يقول ابن جبير فهو "عند أهل مكة موسم من المواسم المعظمة، وهو أكبر أعيادهم، ولم يزالوا على ذلك قديما وحديثا يتوارثونه خلفا عن سلف متصلا ميراث ذلك إلى الجاهلية لأنهم كانوا يسمونه منصل الأسنة، وهو أحد الأشهر الحرم وكانوا يحرمون القتال فيه، وهو شهر الله الأصم كما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم" (جبير، 1988، صفحة 99)

يقدس أهل مكة شهر رجب فهو أكبر أعيادهم، وبه يعيد المجتمع بناءه واستقراره ويحقق توازنه بحرمة القتال فيه. وتتعاظم قدسية هذا الشهر بتخصيص العمرة فيه، إذ هي أخت الوقفة العرفية كما ذكر ابن جبير، ويترافق الاحتفاء بهذا الزمن المقدس الذي هو شهر الله الحرام مع أداء العمرة وما يرافقها من طقوس احتفالية يقول ابن جبير في وصفها :" ولم يبق ليلة الخميس المذكور بمكة إلا من خرج للعمرة من أهلها ومن المجاورين، وكنا في جملة من خرج ابتغاء الليلة العظيمة. فكدنا لا نتخلص إلى مسجد عائشة من الزحام وانسداد ثنيات الطريق بالهوادج، والنيران قد أشعلت بحافتي الطريق كله، والشمع يتقد بين أيدي الإبل التي عليها هوادج من يشار إليه من عقائل نساء مكة. فلما قضينا العمرة وطفنا، وجئنا للسعي بين الصفا والمروة،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وقد مضى هدئ من الليل أبصرناه كله سرجا ونيرانا، وقد غص بالساعين والساعيات على هوادجهن(...) فعاينا ليلة هي أغرب ليالي الدنيا، فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجبا يحدث به ولا عجبا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة، لكثرة الخلائق فيه محرمين ملبين داعين إلى الله عز وجل ضارعين، والجبال المكرمة التي بحافتي الطريق تجيبهم بصداها حتى سكت المسامع، وسكبت من هول تلك المعاينة المدامع وذابت القلوب الخواشع. وفي تلك الليلة ملئ المسجد الحرام كله سرجا فتلألأ نورا، وعند ثبوت رؤية الهلال عند الأمير أمر بضرب الطبول والدبادب والبوقات إشعارا بأنها ليلة الموسم(...) فلما كانت صبيحة ليلة الخميس خرج إلى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله انحشد له أهل مكة على بكرة أبيهم (...) فالفرسان منهم يخرجون بخيلهم ويلعبون بالأسلحة عليها، والرجالة يتواثبون ويتثاقفون بالأسلحة في أيديهم حرابا وسيوفا وحجفا ...." (جبير، 1988، الصفحات 100-101)

يعج النص بالطقوس التي تفعل حركة المرور إلى الزمن المقدس الذي يعلن الهلال عن ميلاده، ولا تخفى علينا في هذا المقام رمزية الهلال ودلالته على التجديد وبدء دورة الحياة، حياة تحفها الرغبة الجامحة في تطهير الجسد والروح بالطواف حول البيت العتيق، دورانا لتحقيق الكمال في التطهير، ثم سعي بين الصفا والمروة، وتلبية لله عزوجل وتضرع ودعاء له بقبول التوبة ومغفرة الخطايا. وكلها طقوس تغمس المعتمرين في الزمن المقدس، وتُفَعِّل التواصل مع الله عزوجل. إذ الطواف طقس ديني سماوي في الأصل، فهو من عمل الملائكة الكرام في طوافهم حول البيت المعمور في السموات العلى تعظيما لله وتقديسا له. ويأتي الطواف حول الكعبة تعبيرا عن الطواف حول المركز، فالكعبة تقع في مكة المكرمة وهي سرة العالم ومركزه كما سبق الذكر، وبالطواف حول المركز" يحقق الكائن ذاته إنسانا كاملا ينصهر في الكون والزمن معبرا عن دورانه ومصيره وعن حركة الحياة نفسها" (الدبابي، 2010، صفحة 42)

أما السعي فهو طقس عبور يكون معه استرجاع التوازن النفسي وتحقيق النجاة واستعادة الحياة من جديد، يعكس ذلك تجربة السعي الأولى لهاجر عليها السلام، في سعيها بين جبلي الصفا والمروة طلبا للماء حياة لابنها، وحياة للمكان المقدس مكة الكرمة بتعميرها بعد أن كانت مكانا لا حياة فيه، وجاء ذلك استجابة من الله عزوجل لدعوة سيدنا إبراهيم الخليل بأن يجعل مكة بلدا آمنا كثير الخلق وفير الخير.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أما الدعاء فهو التواصل اللغوي والأداء اللفظي للعبادة، وهو طقس تكفيري يترافق مع الدموع انسكابا وذوبان القلوب خشوعا طلبا للمغفرة ورجاء بالقبول الذي يتيح المرور إلى الفضاء والزمن المقدسين. وتعد الدموع شكلا من أشكال التطهير ورمزا من رموز الحياة لأنها "شبيهة بقطرة الماء، فما يجمع بين الدمعة وقطرة الماء ليس اللون فقط بل التكوين المتماثل في المواد تقريبا، وربما الحجم(في بعض الأمثال توصف الدمعة بأنها بحجم قطرة الماء)، ولذلك فدموع البشر هي المكافئ الموضوعي للمياه مياه الأمطار، الآبار الأنهار، عيون الماء، كما أن تسمية العرب لينابيع الماء بالعيون يتضمن هذا التماثل الذي نشير إليه، فهي تنضخ بالدموع أي بقطرات الماء" (الربيعو، 2007، صفحة 239)

تتواصل تيمة طلب الحياة وتتمظهر في الاحتفال بالزمن المقدس عبر طقس إشعال الشموع طلبا للتجديد واستدعاء للأنوار العلوية، فللشمع أو للضوء كما يقول غاستون باشلار" لكل شيء يصعد نفحة ألوهية وانشداد إلى عالم النور المحض " (باشلار، 1995، صفحة 101)

تتسع حلقة الاحتفال بالزمن المقدس عبر ضرب الطبول والدبادب والبوقات إشعار بأنها ليلة الموسم ليتواصل بذلك مسعى طلب الحياة، إذ "الآلات قارة في أعياد رأس السنة وفي المعابد السامية القديمة والطقوس الزراعية اليونانية والرومانية، يخرج منها هي أيضا صوت البرق المبشر بالخصب، وهي إشارة إلى قوى الخصب، هذا الخصب الذي يحتاج إلى مبدأين ذكوري يوجد في آلات النفخ وأنثوي يوجد في الطبل وفي الطبل يوجد المبدآن" (الدبابي، 2010، صفحة 44)

تكتمل حلقة ذلك الاحتفال باللعب على ظهور الخيول مرحا بالسيوف والآلات الحربية، وفي اللعب كسر لرتابة اليومي وتجديد لطاقة الحياة، وقد اعتبره **جروس** ممارسة وإعداد للحياة المستقبلية، وشرح **ستانلي هول** اللعب بأنه إحياء للأنشطة البدائية (العشماوي و فاروق أحمد مصطفى، 2008، صفحة 152). وفي السيوف والآلات الحربية مظهر آخر من مظاهر إعادة وبعث الحياة فهي" نورانية تولد النظام وتفصل بين الخير والشر. فعندما يلقي اللاعبون بالسيوف إلى السماء ويتلقفونها عند هبوطها دون أن يسقطوها يحصلون على الطاقة الحيوية التي استلهمتها السيوف عند ارتفاعها، والسيوف ذات صلة بالبرق تنبئ بالغيث" (الدبابي، 2010، صفحة 45)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يعيد أهل مكة إحياء الزمن المقدس من جديد في ليلة النصف من شعبان، فهي الأخرى من الليالي العظام إذ أنها" مباركة عند أهل مكة معظمة للأثر الكريم فيها، فهم يبادرون فيها إلى أعمال البر من العمرة والطواف والصلاة أفرادا وجماعة، فينقسمون في ذلك أقساما مباركة. فشهدنا ليلة السبت التي هي ليلة النصف من شعبان حقيقة احتفالا عظيما في الحرم المقدس إثر صلاة العتمة، جعل الناس يصلون فيها جماعات التراويح يقرأون فيها بفاتحة الكتاب، وبقل هو الله أحد عشر مرات في كل ركعة، إلى أن يكملوا خمسين تسليمة بمائة ركعة، قد قدمت كل جماعة إماما وبسطت الحصر وأوقدت الشمع، وأشعلت المشاعل وأسرجت المصابيح(...) فكانت من الليالي الشهيرة المأمولة أن تكون من غرر القربات ومحاسنها. نفع الله بها ولا أخل من بركتها وفضلها، وأوصل إلى هذه المثابة المقدسة كل شيق إليها بمنه" (جبير، 1988، الصفحات 112-113)

يكشف هذا النص عن نشاط احتفالي متنوع العبادات ففيه العمرة والصلاة وقراءة القرآن الكريم وترتيله وقد تفعّل ذلك الاحتفال بتهيئة المكان المقدس (الحرم المكي) حصر مبسوطة وشموع موقدة وسرج مشتعلة نور يستدعي الأنوار الإلهية، التي يكون معها تجديد طاقة الحياة مرة أخرى في نفوس المتبتلين المحتفلين بتلك الليلة العظيمة الأثر المقدسة المقام.

تأتي إلى جانب ما سبق ليلة السابع والعشرين من رمضان معبرة هي الأخرى عن ذلك الحنين والشوق إلى الزمن المقدس. وقد كانت "ليلة الجمعة (...) فكانت الليلة الغراء والختمة الزهراء والهيبة الموفورة والحالة التي تمكن عند الله تعالى في القبول والرجاء، وأي حالة توازي شهود ختم القرآن ليلة السابع والعشرين من رمضان خلف المقام الكريم، وتجاه البيت العظيم، وإنها لنعمة تتضاءل لها النعم تضاؤل البقاع للحرم" (جبير، 1988، صفحة 123)

تتعدد ملامح القداسة في هذه الليلة فهي ليلة من ليالي شهر رمضان المعظم، والمبارك بنزول القرآن فيه ويجري الاعتقاد بين الناس أن تلك الليلة هي ليلة القدر التي نزل فيها القرآن الكريم على سيد الخلق أجمعين عليه ألف صلاة وتسليم. وهي ليلة غراء دلالة على تنزيهها وطهرها وقدسيتها التي ترافقت مع قدسية ليلة الجمعة التي سميت " حربة أيضا لبياضها ونورها كالحربة." (المرزوقي، دت، صفحة 201) والجمعة عيد من أعياد المسلمين، ولا تخفى علينا دلالة العيد على التجديد واستعادة الزمن الأول.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يُدَعَم الاحتفال بتلك الليلة بتهيئة المكان المقدس مرة أخرى، وتطهير الروح بتلاوة القرآن وختمه، وكذا برفع الأصوات دعاء لله وتواصل مباشر معه. ويتفاعل المكان المقدس مع ذلك إذ يرتج الحرم لأصواتهم وتنتصب تلك الليلة معلنة عن قدسيتها حتى إنه " ليتوهم المتوهم لهول ما يعاينه أن تللك الليلة المباركة نزهت لشرفها عن لباس الظلماء، فزينت بمصابيح السماء" (جبير، 1988، صفحة 125) وتأتي هذه الليلة متفاعلة مع الليالي السابقة الذكر معبرة في ذلك عن مشهد آخر من مشاهد الحنين إلى الزمن الأول والرغبة الجامحة للحلول في عالم القداسة.

خاتـــمة:

جاءت رحلة ابن جبير مشبعة بالحياة الدينية التي عبرت عنها مختلف العبادات كالصلاة وأداء العمرة وقراءة القرآن والتسبيح والدعاء، وغير ذلك من العبادات التي تؤكد مركزية الدين الإسلامي في المجتمع المكي، والحنين العميق للمسلمين إلى البقاء في تواصل دائم مع الله. وهو تواصل عبرت عنه مشاهد الأماكن المقدسة والآثار المباركة، وانجذاب المتبتلين إليها واحتماؤهم بها رغبة في تجديد ذلك التواصل والارتقاء إلى عالم علوي تطهيري. وقد كشفت بعض الطقوس(كالدعاء البكاء، قراءة القرآن ...) الممارسة أثناء الاحتفال بالزمن المقدس عن دورها التطهيري لتخليص الذات من الدنس الدنيوي، وتأهيلها للحلول في عالم القداسة والفوز برضا الله عزوجل والتنعم برحمته وفضله.

عكست من جانب آخر بعض الطقوس الدينية كالطواف والسعي واللعب أنشطة أولية بدائية، موغلة في التاريخ الإنساني، وقد عبرت بتكرارها وديمومتها الزمنية عن حتميتها ونجاعتها، في استعادة دورة الحياة واستدعاء الزمن الأول الذي يضمن للإنسان الديني الحياة الفردوسية الخالدة، فهي مطلبه في كل زمان وغايته المنشودة التي لخصتها الأفعال الطقسية ومختلف العبادات الدينية لأهل مكة والحجاج والمعتمرين الوافدين من كل مكان.

قائمة المصادر والمراجع:

1-ابن جبير(أبو الحسن أحمد بن محمد)، 1988، رحلة ابن جبير، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، دط، الجزائر.
2- ابن هشام(أبو محمد عبد الملك)، 1995،السيرة النبوية،تحقيق مجدي فتحي السيد،دار الصحابة، ط1،طنطا.
3- المرزوقي(أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن)، د ت، الأزمنة والأمكنة، دار الكتب العلمية، دط، بيروت.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

4- غاستون باشلار، 1995،شعلة قنديل، تر خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 بيروت.
5- فاضل الربيعي وتركي علي الربيعو، 2007، الأسطورة والسياسة، دار الفكر المعاصر، ط1،بيروت.
6- محمد عابد الجابري، 2001، العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، لبنان.
7- محمد عجينة ،1994،موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، دار محمد علي، ط1، صفاقس.
8- محمد نعمان الجارم، دت، أديان العرب في الجاهلية، مطبعة السعادة، ط1، مصر.
9- مرسيا إلياد،1987، الدنيوي والمقدس، تر نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر،ط1، دمشق.
10-مرفت العشماوي وفاروق أحمد مصطفى، 2008،دراسات في التراث الشعبي، دار المعرفة، ط1.لبنان.
11- Emile Durkiem, 1995,the elementry forms of religious life,trnslate by Kahen E Fields, the free press, new York,10 ed.

المقالات:

1- سهام الميساوي الدبابي،2010، العمرة الرجبية، حوليات الجامعة التونيسية، ع55، ص 42، 44، 45.
2- سهام الميساوي الدبابي، 2010، مقاربة سوسيولوجية لنص من كتاب المدخل لابن الحاج العبدري في ذكر النفاس وما يفعل فيه، أعمال مهداة للأستاذ عبد المجيد الشرفي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة منوبة، تونس ص 280. 283، 284.